الحياة الأدبية في الجزائر الحفصية

625-982هـ/1228-1574م

د/علال بن عمر/ قسم العلوم الإنسانية/جامعة الشهيد حمة لخضر/الوادي

summary.

The literary life in Algeria Hafsid dynasty. (**625-982 AH /1228-1574 CE**)

We tried through this study for to clear the dust from our literary heritage, then we follow the most important scientific production of our ancestors, also their literary influence which influenced the literary treasury in the Maghreb area, as well as entire Islamic world. Throughout the Hafsid period there were unstable political events, as a result of internal problems and the power struggle by many princes, in addition to appearance of the Christian Recovery Movement which began to align the southwestern coasts of the Mediterranean sea.

So the problem asks itself: Did those disturbances have a role in relation to the breakdown of literary life?, is it possible to emerge a scientific or a literary movement in such a situation? , and at that time, have the writers, the poets and the linguists

appeared to lead the literary life ?. We discussed the problem with three broad points:

1- The literary heritage of the region before the Hafsid era.
2- The rise factors of literary life in the region.
3- Aspects of The literary life in the region. (With a brief introduction of many famous writers and poets)

تقديم

إن موضوع " الحياة الأدبية في الجزائر الحفصية" قد أثار حفيظتنا لدراسته وتسليط الضوء على مكنوناته، وذلك لأسباب عديدة أهمها: أولا ما يتعلق بطبيعة الإطار المكاني للموضوع، فالجزائر الحفصية يُقصد بها الإقليم الغربي للدولة الحفصية أو ما يعرف حاليا بمدن الشرق الجزائري، والتي كانت في تلك الفترة خاضعة لسلطة الحفصيين بتونس، لذلك تناولت معظم الدراسات المتعلقة بتاريخ الحفصيين وآثارهم الحضارية العاصمةَ تونس وضواحيها، بينما بقي إقليمها الغربي على هامش تلك الدراسات. أما الأمر الثاني فيتعلق بقلة المصادر والمراجع التي تناولت المجال الثقافي، وخاصة الأدبي منه، وما وُجد من ذلك ففي كتب التراجم والطبقات أو كتب الرحلات.

أما السبب الرئيسي الذي بعث فينا حبَّ الخوض في غمار هذا البحث هو مقولة ابن خلدون التي اتسمت بالقسوة تجاه الأدب المغربي، والتحامل الكبير على أعمدته في هذه الفترة، وذلك عندما أورد قوله:"الأدب المغربي ضعيف نازل الدرجة

من أدب الأقطار الإسلامية الأخرى، ولم ينبغ في الشعر والكتابة من المغاربة إلا قليل كابن رشيق وابن شرف وابن الرقيق ..."[1]

لذلك سنحاول من خلال هذه الدراسة نفض الغبار على تراثنا الأدبي، والإطلالة على أهم ما خلّفه سلفنا من إنتاج علمي، وما قدّمه أدباؤنا ولغويونا من آثار أدبية أثْرت خزانة الأدب في المغرب العربي، بل في العالم الإسلامي بأسره.

وكما هو معلوم أنّ الأحداث السياسية التي شهدها العهد الحفصي، كانت جدُّ مضطربة نتيجة كثرة الفتن الداخلية وصراع الأمراء على السلطة، إضافة إلى ظهور حركة الاسترداد المسيحي التي بدأت آثارها تلمس الشواطىء الجنوبية الغربية للبحر المتوسط[2]، وهنا تطرح الإشكالية نفسها؛ هل كان لتلك الاضطرابات دورٌ في تدهور الحياة الأدبية وانهيارها؟ وهل يمكن أن تنشأ في ظلّ ذلك كلّه حركة علمية أو أدبية؟ وهل ظهر في تلك الفترة أدباء وشعراء ولغويُّون قادوا الحياة الأدبية بالمنطقة؟

سنحاول الإجابة على تلك الإشكاليات بالتعرض إلى ثلاثة عناصر أساسية في الموضوع:

- الإرث الأدبي للمنطقة قبل العهد الحفصي .
- عوامل تطور الحياة الأدبية بالمنطقة .
- مظاهر الحياة الأدبية للمنطقة (مع عرض موجز وترجمة للعديد من الأدباء والشعراء المشهورين).

1- الإرث الأدبي للمنطقة قبل العهد الحفصي:

لقد عرف الإقليم الغربي للدولة الحفصية حركية علمية وأدبية منذ العهد الحمّادي(387هـ-537هـ/997م-1142م) حيث اشتهر العديد من فطاحلة الشعر والأدب خاصة ببجاية والقلعة، وطبنة، والزاب، وبونة، وقسنطينة، وغيرها من أمصار بلاد المغرب الأوسط، وقد كانت بجاية وقتذاك عاصمةً للحمّاديين، أوْلاها أمراؤها أهمّية بالغة، فكانت محطَّة من محطات التزوّد بالعلم والمعرفة، وشمعة تضيء على من حولها من البلدان، ووصل نورها حتى أوربا التي كانت تعاني من العتْمة طيلة العصور الوسطى.

وقد بلغ العهد الحمادي من الرقيّ الأدبي منزلة عظيمة، نتيجة المخلّفات الحضارية التي أوجدها من سبقوهم، فنسج الحمّاديّون على منوالهم، إذ كان لمعظم الدول التي سبقتْ عهدهم اهتمام بالغ بهذا المجال، بل كان مؤسّسو تلك الدول أنفسهم من الأدباء كالدولة الأغلبية(184هـ-296هـ/800م-908م) التي أشْرف على تأسيسها عالمٌ وأديبٌ ومثقفٌ بارعٌ، هو إبراهيم بن الأغلب(140هـ-196هـ/757م-811)، وقد شهدت الدولة الأغلبية بافريقية وشرق لجزائر نهضة أدبية كبيرة، برز فيها عديد الأدباء والشعراء والكُتّاب، وممن اشتُهر خلال عهدها من الأدباء: عبد الملك بن قطن(ت255هـ /868م) وأحمد الصواف(ت291هـ /903م) الذي اشتهر بالنثر، وأبو العباس محمد بن أ حمد البريدي(ت276هـ/889م) وهو أبرز شخصية أدبية في النثر الفني بافريقية لهذا العصر.

أما عهد الرستميين (160هـ-296/ 777-909م) فقد اشتهر أئمته بالعلم والفقْه والأدب، وقد قطعت دولتهم شوطا كبيرا في ميدان الأدب العربي، وفتحت للغة الإسلام الأبواب على مصراعيها، فنبغ بها الكُتَّاب والشعراء والعلماء؛ وفي مقدمتهم الإمام أفلح بن عبد الوهاب(188هـ-238هـ/803م-852م) وهو من أكابر الأئمة الرستميين وأشهرهم، و من قصائده العصماء تلكم القصيدة في فضل العلم التي يقول في مطلعها:

العلم أبقى لأهل العلم آثـارا و ليلهم بشموس العلم قد نـارا

يحي به ذكرهم طول الزمان و قد يريك أشخاصهم روحا وأبكارا[3]

كما سطع نجم الأديب الشاعر بكر بن حماد التيهرتي(ت296هـ/908م) في هذا العهد، وهو زيادة على ذلك من كبار المحدّثين وثقاتهم ، سمع بالمشرق ابن مسدد، وعمر بن مرزوق، وبشر بن حجر، وأخذ بافريقية عن ابن سحنون وغيره، ونبغ في الشعر أيما نبوغ، ونظم قصائد جيدة في أغراض مختلفة؛ كالوصف، والمديح، والهجاء، والرثاء، والاعتذار، والزهد، والوعظ[4]، ومن شعره:

قف بالقبور فنادِ الهامدين بها من أعظم بَلِيَتْ فيها وأجساد

قوم تقطَّعت الأسباب بينهـم من الوصال وصاروا تحت أطْواد

والله والله لو ردّوا ولو نطقوا إذًا لقالوا التّقى من أفضل الزاد[5]

وما إن دخل العصر الحمَّادي، حتى أضْحت مدنُه قلاعَ علم، ودورَ أدب، وموطنَ نشاط عقلي، ومصدر رقيّ فكري، صارت تضاهي قرطبة والقيروان، إذ

أسَّس الحمَّاديون المدارس والجوامع التي تدرّس العلوم والآداب، وكان ملوكهم يغْدقون على العلماء والشعراء. وقد راج سوق الشعر على عهدهم، وقِيل في شأنهم قصائد بليغة، وكان أشهر أدبائهم وشعرائهم من البيت الحاكم؛ أمثال المنصور بن الناصر بن علنَّاس(481-498هـ/1088م-1104م)، ويحي بن العزيز بن باديس(498هـ-515هـ/1104-1121م) الذي كان فصيح اللسان والقلم، مليح العبارة، بديع الإشارة، كما كان العزيز كثير المجالسة للأدباء والشعراء، وتعجبه مجالس البحث والمناظرة[6].

أما عن روّاد هذا العهد من فطاحل الأدباء، فنذكر في مقدمتهم يوسف بن محمد بن يوسف أبا الفضل بن النحوي (ت513هـ/1119م) الذي ضُرب به المثل في تقواه وزهده وورعه وعلمه، فقد أجاد ابن النحوي قرض الشعر، كما أجاد علوم الدين والفقه والكلام وغيرها، وبراعته برزت في شعر التوسلات، وهو نوع من أنواع الأدب الصوفي الذي انتشر ببلاد المغرب، وقد كتب في ذلك قصيدة جيميَّةً عُرفت بالمنفرجة، وهذه القصيدة الجيميّة وضّح فيها ابن النحوي انقشاع الأزمة بعد شدّتها، ودور الصوفية في فرْيِها، مطْلعها –من البحر الخبب-

اشتدّي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلج[7]

وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السّرج[8]

وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الإبَّان تجي[9]

ونشير في هذا العهد إلى تطوّر لون آخر من ألوان الأدب، وهو الرسائل الإخوانية والرسائل الديوانية الإدارية التي كان يغلب عليها السَّجع، واشتهر في هذا اللون ابن العالمي البجائي، الذي تفنّن في النثر من خلال رسائله الديوانية، إذ كان من كُتّاب الدولة الحمادية، وعموما فقد اشتهر العديد من الأدباء خلال هذا العهد، نذكر منهم على سبيل الاختصار:

- عبد الكريم النهشلي(ت.405هـ/1014م):كان كاتبا نقَّادا، وشاعرا كبيرا. عاش في بلاط الحماديين وأثرى البيئة الأدبية المغربية كثيرا، وقد تأثَّر به في النقد الأدبي ابن رشيق في عمْدته، وكان أديبًا كبيرا عارفا باللغة، وخبيرا بأيام العرب وأشعارها، وكان مذهبه في الأدب مذهبا أخلاقيًّا .

-ابن رشيق المسيلي(ت.463هـ/1070م) وكان كاتبا كبيرا وشاعرا مفوَّها ومؤلِّفا جليلا، ومن أهمّ آثاره التي رفعت قيمته الأدبية كتبه النقدية؛ ومنها كتاب العُمْدة في جزأين، وعُرف أسلوبه في غير الرسائل بالسهولة والقوة، كان لا يستهدف فيه السَّجع إلا ما جاء نادرا.

-أبو عبد الله محمد القلعي: عاش أواخر عهد بني حماد، وهو جيد الشعر .

-أبو حفص عمر بن فلفول : وقد كان كاتبا في بلاط يحي بن عبد العزيز الحمادي(515هـ-547هـ/1121م-1152م).

أما على العهد الموحدي، فقد اشتهر الشاعر القسنطيني، شاعر المغرب الأوسط في زمانه[10]أبو علي حسن بن علي بن عمر بن الفكون القسنطيني (حيًّا سنة 602هـ /

1205م)، وقد ذكره العبدري[11](حيا سنة 688هـ / 1289 م) في كتابه الرحلة، واشتهر بتضلّعه في علوم شتَّى، فكان رحَّالةً، وأديبا، وفقيها، وشاعرا ماهرا، قال عنه الغبريني: "....من العلماء الذين تُستظرف أخبارهم وتروق أشعارهم، غزير النظم والنثر وكأنّهما أنوار الزهر، وهو من الفضلاء النبهاء وكان مُرفَع المقدار، ومن له الحظوة والاعتبار، وكان الأدب له من باب الزينة والكمال، ولم يكن يحترف به لإقامة وُدٍّ أو إصلاح حال، وأصله من قسنطينة من ذوي بيوتاتها ومن كريم أروماتها وتواشيحه مستحسنة"[12]، وقد اشتُهر هذا العالم بموالاته للبلاط الموحدي، حيث مدح خلفاءهم في العديد من قصائده، حتى أجْزلوا له العطاء، ونال منهم العديد من الجوائز، وذكر ابن قنفذ أنّ ابن الفكون[13] مدح الخليفة الناصر عند زيارته إلى قسنطينة(602 هـ/1205م) بقصيدة عظيمة لم تدوَّن، كما وصف بجاية معقل الحماديين في قصيدة- من البحر البسيط- مطلعها:

دع العراق وبغداد وشامَهما فالنَّاصرية ما إن مثلها بلدُ

برٌّ وبَحْرٌ وموْجٌ للعيون به مسَارِحٌ بان عنها الهمُّ والنَّكَدُ[14]

كما ذكر لنا الرحالة العبدري أيضا القصيدة التي كتبها أثناء رحلته إلى مراكش، وكان قد كتب بها إلى أبي البدر محمد بن مردنيش –أمير شرق الأندلس- وهو بقسنطينة، من البحر الوافر- وهي على النحو التالي:

ألا قل للسري بن السريّ أبي البدر الجواد الأرْيحيّ[15]

أيا معنى السيادة والمعالي ويا بحر النَّدى بدر النديّ[16]

2-عوامل تطور الحياة الأدبية في المنطقة خلال العهد الحفصي:

لقد ورث الحفصيون التراث الحضاري الذي خلَّفته دولة الموحدين، مما جعلهم يسبقون بني زيان وبني مرين في المضيِّ قُدُما نحو التطور والتقدم، فكانت دولتُهم بتونس تمثل أرقى ما وصلت إليه حضارة المغرب الإسلامي في القرن 7هـ/13م وما بعده، وقد وصف ابن خلدون الدولة في عهد المستنصر (647هـ-675هـ/1249م-1276) بقوله:" وفي أيام هذا السلطان، عظُمت حضارة تونس وكثُر ترف سكَّانها، وتأنَّق الناس في الملابس والمراكب والمباني والماعون والأبنية، فاستجدّوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها إلى أن بلغت غايتها، ثم رجعت من بعده أدراجها..."[17]، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أنَّ تعلّم العلوم والآداب من جملة الصنائع، وأن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلّة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة[18]، ولما كانت تونس من أهم الحواضر الكبرى في بلاد المغرب العربي- على حدّ تعبيره-أينعت الحياة الثقافية بها، وانتشرت في كامل ربوع الدولة الحفصية، فأصبحت المملكة قبْلة العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء، وَفَد إليها كثير من علماء المغرب والأندلس، بل وحتى بلاد المشرق، ولم تكن الجهة الغربية لها-مدن الشرق الجزائري- بمنأى عن ذلك كله، -ونحن هنا إذ نورد كلام ابن خلدون، فنحن نردّ عليه بما أورده في مقدمته، ونفنّد مقولته الأولى التي قلّل فيها من شأن الأدب المغربي —

إنَّ العامل الأساسي الذي أدَّى إلى ظهور حركة أدبية رائدة خلال هذه الفترة، هو ما أفضْنا الحديث عنه في العنصر السابق، وهو ما يتعلق بالإرث الأدبي والتراكمات العلمية والفكرية التي سبقت هذا العهد، كما أن هناك عوامل أخرى مهمة أدَّت دورها في تنشيط الحياة الأدبية وتفعيلها أهمها :

أ–عناية الحكّام والأمراء بالعلم والعلماء:

لقد كان هذا العهد بالنسبة للمنطقة عهدا مُشْرِقا، حيث ازدهرت فيه الحياة الثقافية بما توفَّر لها من أسباب النشاط، والمتمثّلة خاصة في عناية الملوك والأمراء بالعلماء والأدباء والفقهاء، وإعطائهم المكانة الرفيعة، وقد عمل الملوك الحفصيون على جلْب العلماء والأدباء إلى بلاطهم بالحاضرة تونس، التي كانت الوجهة الأولى لعلماء المغرب الأوسط، لكونها دار المملكة ومقر السلطنة، وما من فنٍّ من فنون العلم إلاَّ وُجد بها، ولا مؤْردا من موارد المعارف إلاَّ ويوجد بها حوله واردًا وحائما، وبها من أهل الرواية عدد وافر، يجْلُو الفخار بهم، وقال فيها القلقشندي : " لأهلها لُطْف أخلاق وكَرَمُ شمائل بالنسبة لأهل العُدْوة وسائر بلاد المغرب، وناهيك من بلاد شعرٍ ملِكُها أبو العباس، وهو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن أبي يحي أبي بكر (772هـ-796هـ/1370-1393م)، ثم استرسل القلقشندي في قوله شعرا–من البحر الطويل –:

مواطننا في دهرهنّ عجائب وأزماننا لم تعدّهنّ الغرائب

مواطن لم تحكِ التواريخ مثلها ولا حدَّثت عنها الليالي الذواهب[19].

وإذا كان هذا ديْدَن سلطان الدولة، فما ظنُّك بغيره من الأمراء والوُلاّة في الأقاليم التابعة للدولة، وبذلك وجد العلماء والأدباء طريقهم للسمو بالعلم والأدب في ظلّ الدولة الحفصية، فكانوا المثل الأعلى في النبوغ العلمي والإنتاج الأدبي[20]، وإسناد مهام الخطط الدينية والسياسية إليهم، والوقوف عند آرائهم السديدة التي يشيرون بها عندما يستشارون، وهذا ما حمل علماء المغرب الأوسط على التقرّب لبلاطات الأمراء الحفصيين، والانقطاع لخدمتهم إجابةً للرغبة العلمية الصادقة، ووفاءً بالواجب المفروض، فبثُّوا العلم ونشروا الأدب، وقدَّموا التآليف الجليلة لخزائن أمراء الدولة، ونثروا على الأسماع محامدهم وأشادوا بمفاخرهم[21].

كما اهتمَّ السلاطين والأمراء الحفصيّون بالمؤسسات التعليمية، وساهموا في بناء المدارس والجوامع والكتاتيب. وشجَّعوا التأليف، وجمعوا أصناف الكتب، وبرزت رعايتهم للعلم والأدب، وقد كان من بينهم من ينتمي إلى نخبة العلماء والفقهاء، كالسلطان أبي زكرياء الأول بن عبد الواحد بن أبي حفص (625هـ-647هـ/1227م- 1249م) الذي اشتهر بالأدب والشعر وكان له شعر مدوَّن، وكثيرا ما كان يجالس طلبة العلم ويشاركهم أحسن مشاركة، نازعا عن نفسه ثوْب السلطة، متزيّنا بحلَّة العلم، وكان لحرْصه على التعليم يقوم بزيارات خاصة للكتاتيب التي يدرَّس فيها الأولاد[22].

أما السلطان المستنصر (647هـ-675هـ/1249م-1276م) فقد رتَّب لمجالسته أعلاما من الفقهاء والأدباء، كالمحدِّث الحافظ أبي بكر بن سيد الناس[23](ت669هـ/1270م)، والأستاذ ابن عصفور[24] (ت669هـ/1270م)، وابن الأبَّار[25] (ت658هـ/1259م)، وغيرهم من الأعلام[26].

كما كان الأمير أبو حفص عمر(683هـ-694هـ/1284م-1294م) يعظِّم الفقهاء والصلحاء ويبرُّهم، بل ويبادر إلى قضاء حوائجهم، وعلى عهده ملك الأمير أبو زكريا ابن الأمير أبي إسحاق قسنطينة وبجاية بعد عودته من تلمسان، وأحسن فيهما السيرة بعقله، وكان ميَّالا لمجالس العلم، فقرَّب العلماء وأنزلهم منزلتهم، وكان يجالسهم بمجلسه الموقَّر بقسنطينة وكذلك ببجاية، وهو الذي وسّع جامع القصبة بقسنطينة وأصلحه وجدَّده، وكان مشغولا ببناء المدارس، واقتناء الكتب وجمعها، وضمِّ أنواع العلوم لها[27].

وقد كان السلطان أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله، القسنطيني المولد،(772هـ-796هـ/ 1370م-1393م)-مثل أسلافه- يحضُر حلقات العلم بالمساجد. وكان ملازما لحلقة قراءة القرآن الأسبوعية بمقصورة جامع الزيتونة، وكان معظَمُ كُتَّابه من الفقهاء والأدباء وفحول الشعراء[28]. وغالبا ما كانوا من أهل قسنطينة أمثال الشيخ إبراهيم بن أبي محمد عبد الكريم بن كمّاد(عاش في القرن 8هـ/14م)، والكاتب أبو علي حسن بن أبي الفضل القسنطيني(ت 756هـ/1355م)، وغيرهم[29].

ب- الرحلة في طلب العلم:

كانت الروابط الثقافية بين فقهاء وعلماء قسنطينة وبجاية وبونة وبين أهل المغرب والمشرق والأندلس متينة، قائمة على الاتصال المتبادل، إما عن طريق النشاط الدبلوماسي، أو عن طريق الرسائل الإخوانية، أو رحلات الحج أو الرحلات العلمية، فتمَّ بذلك التلاقح الفكري رغم التجزئة السياسية التي كانت قائمة بين أقطار العالم الإسلامي آنذاك.

وقد كانت الرحلة في طلب العلم ميزة ذلك العصر، إذ يقول في ذلك ابن خلدون(ت.808هـ/1406م): " فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال..."[30]، فكانت الرحلة إذن من التقاليد المعمول بها والمحمودة عند أهل المغرب الأوسط، حيث كانوا يسافرون في وقت كان فيه التنقُّل والترحال أصعب ما يكون في عصور ما بعده، لكنَّ السعي من أجل العلم والرغبة في تحصيله ذلَّل كل الصعوبات، وكسر كل الحواجز، فتوجَّه علماء المدينة للترحال إلى كل الحواضر العلمية مشرقا ومغربا، وقد تفاعل علماء شرق المغرب الأوسط مع علماء وطلاَّب مختلف المدن والحواضر الثقافية التي زاروها، وأثَّروا بدورهم في الطلاَّب والشيوخ الذين التقوا بهم في حواضر المشرق والمغرب والأندلس، وذلك بما قدَّموه من عطاء فكري وبما أضافوه من شروح وتفاسير، صاغوها أفكارا في المختصرات والمدونات والتعليقات المختلفة[31].

ج- الحضور الأندلسي والمشرقي في الأدب المغربي:

إن الاحتكاك الأدبي الذي وقع بين مثقفين وبين أعلام الثقافة المهاجرين من الأندلس والمشرق، وخصوصا مهاجرو الأندلس ؛ الذين استوطن الكثير منهم تلمسان وبجاية وقسنطينة والجزائر، فكانت المدن الغربية للدولة الحفصية –الجزائر الشرقية حاليا– قبْلة العلماء ووجهة الرحالة العرب، حيث زارها العديد من علماء العالم الإسلامي ورحّالته، ووصفوا أحوالها، وترجموا لعلمائها الذين التقوا بهم، وممن زارها الفقيه المحدث الحافظ المتقن اللغوي التاريخي ابن حمديس الصقلي الذي ولد بجزيرة صقلية سنة 447هـ/1055م، ثم سافر إلى الأندلس سنة 471هـ/1078م ليستقر بعد ذلك في بجاية، وأصبح شاعر المنصور الحمادي، وله ديوان شعر يشتمل على قصائد في مختلف المواضيع والأغراض الشعرية، سواء في المدح أو الرثاء، ويعرف بشاعر الطبيعة الكبير. وقد عاش في بجاية أمدا، ونشر بها أدبه.

أما من المشرق فقد وفد على بجاية علماء أجلاَّء واستوطنوها، وأشهرهم: الفقيه الشيخ تقي الدين الموصلي(القرن7هـ/13م) وكان ذلك زمن أبي الحسن علي بن أحمد الحرالي(ت. 683هـ/1284م).

ومن الذين زاروا تلك المدن أيضا، عزّ الدولة ابن صمادح الذي كان من أمراء الأندلس وملوك الطوائف، ولما خلعه يوسف بن تاشفين عن إمارته، التحق ببجاية حوالي سنة 488هـ/1095م، وكان أديبا وشاعرا فحلا[33]. كما زارها أيضا الفقيه أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم الأشبيلي (ت.581هـ/1185م) المحدث الحافظ العابد الزاهد، وقد نزل بجاية وقت فتنة الأندلس، فبثَّ بها علمه وصنَّف بها

التصانيف، وتولّى أيضا الخطبة والصلاة بها، وكانت له مشاركة في الأدب والشعر رغم اهتمامه الكبير بالفقه والحديث، ونذكر من شعره قوله:

إنّ في الموت والمعاد لشغلا وأذكارا لذي البنهى وبلاغا

فاغتنم خصلتين قبل المنايا صحة الجسم يا أخي والفراغا[34]

وممن زار الإقليم الغربي للدولة الحفصية أيضا الفقيه الأديب الشاعر البليغ أبو بكر بن سيد الناس الاشبيلي(ت659هـ/1260م) الذي رحل من الأندلس إلى المغرب الأوسط واستقر ببجاية، وتولّى صلاة الفريضة والجمعة بجامعها الأعظم، وروى بها وأسمع، حتى تتلمذ على يديه العديد من طلبة العلم، وألّف بها تآليف عديدة[35]، ولما سمع به المستنصر، سلطان الحفصيين بتونس، دعاه إلى بلاطه وقرّبه وجعله من خواصّه، وعاش بها ما قدّره الله له حتى وافته منيّته في السنة المذكورة، وكان ابن سيد الناس يكتب جيدا، وينظُم نظْما حسنا، ومن قصائده قصيدة على قافية العين في قصد الحج يقول في مقدمتها:

أيا سائرا نحو الحجاز وقصده إلى الكعبة البيت الحرام بلاغ

ومنه إلى قبر النبي محمد يكون له بالروضتين مراغ[36]

وحظيت المنطقة أيضا بوجود القاضي الفقيه الأديب ابن الغماز الأنصاري(ت693هـ/1294م) وهو من بلنسية، رحل إلى بجاية واستوطنها، ونشر بها أدبه الصوفي وشعره الزهدي[37].

ومن الكُتَّاب الأدباء الأندلسيين الذين كان لهم الأثر البالغ في الأدب المغربي، الكاتبان الشهيران اللذان عاشا معظم حياتهما ببلاد المغرب؛ الأول ابن الأبّار(ت.658هـ/1259م) وأصله من بلنسيّة[38]، وهو النحوي الأديب المجيد اللغوي، الكاتب البارع كما وصفه الغبريني في درايته، استوطن بجاية واستقر فيها ودرس بها، وأقْرأ وروى وأسمع وصنّف ، وألف فيها تآليف حسنة، كما له نزعات في علم الأدب بارعة مستحسنة[39]. وقد كان مقرّبا أيضا من بلاط المستنصر، والذي مدحه في قصائد عديدة، وكان أوّل إنشاده لما مَثُل أمَامَه قوله:

بشراي باشرت الهدى والنور في قصدي المستنصر المنصور

وإذا أمير المؤمنين لقيته لم ألق إلا نصرة وسرور

وذكر الغبريني أنّه لو لم يكن لابن الأبار إلا القصيدة التي رفعها لمقام الأمير الحفصي أبي زكريا، يستنجده ويستصرخه لنصرة الأندلس لكان فيها كفاية ومطلعها :

أدرك بخيْلك أرض الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

ولو لم يكن له من التآليف غير كتاب "اللجين في مراثي الحسين" لكفاه في ارتفاع درجته، فكيف وله تصانيف كثيرة وتآليف جمة[40].

أما العلم الأندلسي الثاني الذي كانت له بصمة في الأدب المغربي أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي الذي قال عنه ابن قنفذ:"رئيس الأدباء وكبير العلماء وعلامة عصره".[41] عمل في بلاط أبي زكريا الأول(626هـ-647هـ/1228م-1249م) والمستنصر(647هـ/675هـ /1249م-1276م)[42].

وقد أورد الغبريني في درايته الكثير من الوافدين من بلاد الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط وخاصة بجاية، وأشار إلى ذلك التناغم بين الثقافتين المغربية والأندلسية، وأبرز مجالات التأثر والتأثير الثقافي بينهما.

ولم يقتصر تأثير الأندلسيين على الأدب فقط، بل تعدّاه إلى التأثير في الرسم والخط، وقد كان النسخ يتم في أغلب الأحيان بالخط الأندلسي، فظهر في المنطقة الخطَّاطون والنّساخون، وارتبط خطّهم بالخطّ الأندلسي الذي طغى على الخطوط المغربية الأخرى، حتى قال ابن خلدون عن ذلك " ونُسي خطّ القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما، وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على رسم الأندلس"[43].

وقد أدّى ذلك التفاعل الثقافي والتبادل العلمي إلى زيادة النشاط العلمي والأدبي، فتضلَّع علماء وفقهاء المنطقة، وبرز العديد منهم في مختلف العلوم، فأيْنعت التيارات الفكرية التي ظلت تتسرّب إلى بلاد المغرب، وتطورت طرق التدريس؛ جامعةً بين الطريقة المشرقية والأندلسية، وكثُرت التآليف وظهر تيّار الاجتهاد، ووردت مؤلفات جديدة، وأصبحت من أمَّهات الكتب والتي تمَّ استخدامها في البرامج التعليمية، كمختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع، ومختصر خليل بن إسحاق المالكي وغيرها.

د–دور الهجرة الهلالية في تعريب بلاد المغرب

كان في عهد بني حماد زحْف بني هلال على افريقية سنة(442هـ/1050م) وعلى المغرب الأوسط(460هـ/1067م)، وكان لهذا الزحف أثرٌ كبير على المجال الاقتصادي والاجتماعي، وكانت له سلبيَّات عديدة، ذلك أنّ تلك القبائل كانت طبائعها ميّالة إلى العنجهية والفوضى والتخريب، حتى أنّ بعض المؤرخين أطلقوا على هذه الهجرات الهلالية مصطلح" الكارثة الهلالية"[44]، ولكن على الرغم من التأثير السلبي لها، إلا أنّها أثَّرت إيجابيا خاصة على المستوى الثقافي، فقد أدّت الهجرة إلى ترسيخ اللغة العربية في بلاد المغرب البربرية، وطوَّعت اللسان البربري لينطق ويكتب بلغة القرآن خاصة عند سكان الأرياف، وسارت عملية الاستعراب بسير عملية المزج والاندماج الاجتماعي لقبائل العرب في المجتمع المغاربي، وبذلك عمَّت اللغة العربية -أو كادت- القطر الجزائري خلال هذا العهد.

3-مظاهر الحياة الأدبية في الجزائر الحفصية

إن كل تلك العوامل أدت إلى ظهور نهضة علمية وفكرية شملت مختلف المجالات الثقافية، فارتقت بذلك الفنون الأدبية بالقطر الجزائري، وبلغت غاية نضجها، واستحقَّت أن تُفرَد بالدراسة والتحليل.

أ-الأدب النثـــــري

لم يكن النثر في هذا العصر لونا واحدا، بل تعدَّدت ألوانه واختلفت؛ فمنه **نثر الفقهاء**، وهو نثْر علمي يعمد إلى المعاني ولا يهتمّ بالأساليب البيانية، وهناك **نثْر كتّاب التراجم والمؤرّخين**؛ وهو نثْر وسط بين الأدبي والعلمي، فيه بعض عبارات التأنّق ولكنّه يخلو من مميزات النثر الفنّي كالخيال وضروب الاستعارة، ويظهر ذلك من خلال كتاب عنوان الدراية للغبريني، والفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ القسنطيني.

أما **النثر الفني**، فقد كان يمثّله ببجاية الكاتب المترسّل أبو عميرة الذي أقام بها مدة، ثم نقله الحفصيون إلى تونس ليتولَّى كتابة الإنشاء السلطاني بها، وكتابته خفيفة رقيقة الأسلوب شأن كتّاب الأندلس عموما رغم التزامها بالسَّجع. ويمثّل هذا اللون أيضا أبو الخطاب ابن دحْية الكلبي، الذي كان يحشو كتاباته بالغريب تعاظما منه، ومباهاة بمعرفة غريب اللغة وشاذّها، وبالتالي فإن نثْر المغاربة كان متأثّرا، بل ومقلّدا لنثر الأندلس والمشرق[45].

كما يتجلَّى هذا النثر أيضا في الرسائل الديوانية التي كان يكتبها كُتَّاب الدولة الحفصية البارعون، وأشهرهم: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي، الذي كان عالما بالكتابتين الأدبية والشرعية، وعليه كان الاعتماد في المخاطبات السلطانية إنشاء وجوابا، كما كان اعتماد القضاة في التسجيلات، وكان فصيح القلم واللسان بارع الخط[46]. ونذكر من الأدباء الماهرين في الكتابات السلطانية، والذين كتبوا لسلاطين بني حفص:

*– أبا علي حسن أبا الفضل القسنطيني (ت 756 هـ /1355م).

*– عبد الرحمن بن محمد الغازي القسنطيني(توفي في القرن 8هـ/ 14م .

*– أبا إسحاق بن إبراهيم بن وحّاد الكومي القسنطيني (عاش في القرن 8هـ /14م .

*– أبا عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن الحجر(ت810هـ/1407م) .

ومن خصائص هذا النوع من النثر، التكلّف، والاعتماد على السجع وضروب البديع، والتضحية بالمعنى قصد صياغة الألفاظ الجميلة، وكل ذلك يضفي على الرسالة جمالا أخّاذا بسبب التفنّن في انتقاء الألفاظ، وتصيّد ضروب الخيال، وإدخال التفكير الفلسفي.

كما ظهر هذا النوع من النثر في الرسائل الإخوانية، ونلمس ذلك خاصة في العلاقات الأخوية والاجتماعية والعلمية بين العلماء والأدباء، أو بين الشيوخ وتلامذتهم. ونورد هنا على سبيل المثال لا الحصر مراسلات قاضي بجاية أبي عبد الله محمد المسفر(ت744هـ/1343م) لشيخه يوسف بن يعقوب الملاري القسنطيني(ت764هـ/1362م)، والتي ذكرها ابن قنفذ في كتابه أنس الفقير وعز الحقير، أنبأت عن مستوى رفيع في الأدب، ووجدانيات عالية في التصوف والروحانيات، وتبيّن قيمة ومكانة الشيخ يوسف الملاّري عند تلاميذه وبين علماء عصره ونذكر من تلك الرسائل:

"بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

زارت وقد فعل النوى أفعاله صبًّا رأى في وصلها آماله

يا أهل بابل قد شغلتم بالـه بكم كما أشغلتم بنباله

فخذوا لكم منكم بكم حتى يرى منكم سواء هجره ووصاله[47]

الوحشية، لا أوحش الله منكم ، الالتفات ولو بالسّرّ إلى السوى، والفرقة التفريق من الوصل والهوى، فالأول اعتراض عنه، والثاني طلب الحظ منه، والعبودية إخلاص التسليم، والإتيان بقلب سليم، وأسأل الله لي وإياكم الوفاء بالعهود، وبلوغ المقصود بمنّه، ولْيعلم سيدي أبو يعقوب أن كتابه وصل وكنت على شوق له : فجدّد عندي ما لم يدرس، وأكّد عنّي ما لم يلتبس، وتبرّكت به وتآنست بوروده، وطلب منه موصله الجواب، وكان غرضي أن أطيل الكتاب، لأنه عندي مناجاة معكم، وملاقاة بكم، ولكن أعجل الظمآن قبل تمام ريّهِ، والأمل مرافقتكم والتبرّك بكم..."[48].

إن هذه الرسائل تعطي لنا قيما أدبية واجتماعية نادرة، وتوضّح لنا العلاقة التي كانت تربط علماء العصر، وتبيّن لنا أيضا مكانة الشيخ عند تلاميذه وقد تميزت تلك الرسائل في مجملها بـ:

– الاستشهاد بأبيات من الشعر في مطلع الرسائل كما في الرسالة الأولى .

– المبالغة في المدح وإضفاء صفاتٍ للممدوح، تسمو به إلى مقام عليٍّ، تبرُّكا به وتوسّلا وتزلّفا إليه.

– طغيان عبارات التصوف المنتقاة من المعجم الصوفي على السياق العام للرسائل، ومن ذلك" سيدي وسادتي الفقراء– بركتكم وبركة أشياخكم–لطائف روحانية– دوام المعية–

الضمآن–باطن – ظاهر..." فهي رسائل من مريد إلى شيخه، تطْفَح بفيوضات الحبّ، وتنضح بلواعج الشوق الجامح إلى الوصْل والتلاقي.

– إن ملامح الخطاب في الرسالة لا تختلف عمّا عهده العرب من سمات في هذا اللون من الأدب –أدب الرسائل – فالأسلوب يذكّرنا بأسلوب عبد الحميد الكاتب[49](ت 132هـ/749م) الرفيع والعتيق، فالجُمل القصيرة المسجوعة، مسكوكة من معدن هذا اللون العريق، ولعلّ التردُّد العالي للجُمل القصار مردُّه إلى اللهفة المتسارعة للكاتب المتشوّق لرؤية سيّده وشيخه.

– طغيان الأسلوب الإنشائي من نداء إلى أمر يناسب هذا الغرض من الرسائل المتوسّلة إلى درجة الاعتقاد في بركة المرسل إليه، فهو مصدر الخير كله والغوث كله، وأسلوب الأمر هنا أمر توسُّل لا أمر تسلُّط أو ردعٍ أو زجر متعالٍ.

– استعمال ضمير جمع المخاطبين للمفرد المخاطب كقوله "سادتي الفقراء، منكم أسأل الله لي وإيّاكم، ولا تنسوني،..." وذلك لإعلاء قيمة الشيخ يوسف الذي يخاطبه، ورفْعا لشأنه.

ب– الشعر

اتسعت موضوعات الشعر في هذا العصر، وترقّت أساليبها، ومن الموضوعات العادية المعروفة:الوصف، والرثاء، والهجاء، والغزل، والمدح، وغيرها، ولكن ظهرت في الشعر موضوعات جديدة نذكر منها: بكاء الشباب والتشاؤم من إدباره، و ظهور

القصة الشعرية، وشعر الفروسية، وشعر التصوف الفلسفي، وشعر المولديات ومدائح النبي –صلى الله عليه وسلم–، ونزعة الزهد.

وتبدو في ضروب الشعر نزعتان:

النزعة الأولى : وجدانية وأرستقراطية،ويمثّلها شعراء البلاط السلطاني

فكما هو معلوم أنّ هناك مؤرّخين رسميّين يؤرّخون للملوك ودُولهم وسياساتهم، كان أيضا هناك شعراء رسميّون في بلاطات الأمراء والملوك، وقد اشتهر في هذا الضرب: الشاعر ابن دحية الكلبي(ت633هـ/1235م) الذي كان نحويا لغويا شاعرا بارعا، وشعره جزل الأسلوب عادي المعاني، وقد روى الغبريني له قصيدتين في مدح بني أيوب بمصر بعد مغادرته بجاية، قال في مطلع إحديهما:

مالي أُسائل برق بارق عنكم من بعد ما بعدت دياري منكم

وبمنحنى الأضلاع بل وادي الغضا من مهجتي يا راحلين نزلتم

ومطلع الأخرى:

شجتني شواج في الغصون سواجع ففاضت هوام للجفون هوامع

وهيَّجْن شوقا للأراجع باللوى وأين اللوى منّي وأين الأراجع [50]

أما عن شعراء البلاط الحفصي، فأشهرهم: الشاعر القسنطيني[51] أحمد الخلّوف(ت899هـ/1493م)، الذي مدح سلاطين بني حفص في العديد من أشعاره، كما اشتهر أيضا بالمديح النبوي والشعر الديني، وله في ذلك ديوان كامل، وكان الخلّوف يجمع بين النثر والشعر، حتى لقِّب بذي الصناعتين[52]، ولازم الخلوف

السلطان الحفصي أبا عمرو عثمان(839هـ-893هـ/1435م-1488م)، ومدحه في العديد من قصائده، مشيدا فيها بآثاره وأعماله الجليلة ومنها: - من البحر البسيط-:

في كفّه قلم فصل الخطاب غدا مبرّأ من خنى غيّ وفحشاء

يلقى على الطّرس أشياء مغيبة كأنّه قد تلقّاها بإيحاء[53]

ونوع هذا المدح مدحٌ في الخصال الفكرية، حيث مدح الخليفة بالعلم ووفرة العقل ورجاحة الفكر.

وفي أبيات أخرى للخلّوف، مدح الشاعر السلطان بالانتصارات العسكرية التي تحقَّقت في عهده، حتى صوّر السلطان في أكمل صورة من الشجاعة والقوَّة والإقدام، وهو يحاكي في ذلك المتنبّي (ت354هـ /965 م) في مدحه لسيف الدولة (335هـ -357 هـ/ 945م-967م) في قوله-من البسيط-:

مجرّد سيف رأى من عزيمته تكاد أن تختشيه أنفس النطف

ويقول الشاعر القسنطيني الخلّوف في أخرى-من الطويل-

تُؤْمل نعماه ويُخشى انتقامه لطالب سلم أو لطالب فتنة

أمين بني الفاروق في حفظ سرّهم وعدّة نجواهم لدى كل شدّة

...يصول ويحمي شرعة نبوية بسمر رشاق أو ببيض جلية

...وإن هزّ يوم الحرب عامل رمْحه أراك قضيبا مثمرا بالمنية[54]

ولأحمد الخلوف ديوان ضخم في جزأين، خصّص الجزء الأول لمدائحه السلطانية، ومنها الأبيات التي ذكرناها، والجزء الثاني خصّصه لمدائحه النبوية.

ونذكر أيضا من شعراء البلاط الحفصي غير الخلوف:

*– ابن أبي تميم البجائي (ت.684هـ/1285م) .

*– شعيب البجائي(ت.بعد 867هـ/1462م) .

*– أبا القاسم القالي(النصف الأول من القرن 7هـ/13م) .

النزعة الثانية:نزعة شعبية تعكس أفكار الشعب وآلامه

لقد تنوعت ضروب الشعر الذي يحمل هذه النزعة، لكن غالبيته كان بين الشعر الصوفي وشعر المديح الديني والشعر الاجتماعي، وقد طغت طائفة شعراء التصوف والمدائح، وتوسَّعت منذ القرن السابع الهجري،وتركت لنا قصائد كثيرة، وقد تأثرت تلك الطائفة بمنهج أبي الفضل بن النحوي(ت.513هـ/1119م) صاحب المنفرجة، كما تأثرت بالصوفي العابد الزاهد الفقيه أبي الحسن علي بن احمد الحرالي(ت. 683هـ/1284م) الذي تخلَّى عن الدنيا ورحل إلى المشرق فتفقّه وتصوّف. وشعره فيه نزعة التشاؤم، وقد ترك طلبة كثيرين ببجاية ساروا على هذا النهج الصوفي[55]، ومن تلك الطائفة نذكر الشاعر الأديب أبا جعفر بن أبي أمية الشهير بـ "ابن مُقلة زمانه" وله شعر كثير في الحكمة والتصوف ومنه هذه الأبيات:

أأُمسك دمعا وقد أرسلت علي من الهجر ريح عقيم

غفت مقلة الوصل إغفاءه كنومة أهل الرقيم

فإن كان نهج الرضا مائلا فإن صراط المستقيم مستقيم

ولي مقلة نظرت في النجوم قضت لي أنّ فؤادي سقيم[56]

ومنهم أيضا الشاعر أبو عبد الله محمد بن الحسن القلعي(ت.673هـ/1274م) الأستاذ اللغوي النحوي من قلعة بني حماد، اشتهر بشعر الزهد ومدح الرسول، ومن شعره في ذلك:

أمن أجل أن بانوا فؤادك مغرم وقلبك خفّاق ودمعك يسجم

وما ذاك إلا أن جسمك منجد وقلبك مع من سار في الركب متهم

ثم يقول:

فيا طول شوقي للنبي وصحبه ويا شدّ ما يلقى الفؤاد ويكتم

توهّمت من طول الحساب وهوله وكثرة ذنبي كيف لا أتوهّم

وقد أثقلت ظهري ذنوب عظيمة ولكن عفو الله أعلى وأعظم

وأختم نظمي بالصلاة مرددا على خير خلق الله ثم أسلم[57]

كما لمع الشاعر أبو الحسن بن أبي القاسم بن الحسين بن باديس القسنطيني(ت787هـ/1385م) في الشعر الصوفي بسينيته المشهورة في التصوف والتي نظمها أواخر ذي الحجة عام 756هـ/1356م، وعدّد أبياتها نحو ست وتسعين بيتا، وقد تهافت العلماء بعده على شرحها؛ وكانت القصيدة السينيّة في الثناء على شيخ الطريقة القادرية الشيخ الزاهد الحنبلي عبد القادر الجيلالي (ت.561هـ/1166م

دفين بغداد)، والذي اعتبره الشيخ ابن باديس قطب الصوفية، ومصدر النور وطريق الهداية وذلك في قوله(من البحر الطويل):

ألا صل إلى بغداد فهي مُنى النفس وحِّدث بها عمن ثوى باطن الرمس

وبالجيلي[58] فابدأ فذاك قطبهم ومنهم استمدوا في الإضاءة والقبس

من أبدالها أقطابها علمائها أولي الكشف والعرفان والبسط والأنس

ومن قد أتاها نازح الدار منهم وضاء له نور الوَلاية كالشمس[59]

وأقرّ ابن باديس في سينيته بضرورة اللجوء إلى الصوفية في فرْي الأزمات، وهو ما ذهب إليه أبو الفضل النحوي(ت.513هـ/1119م) في قصيدته المشهورة "المنفرجة"، فهي أيضا من شعر التوسّلات الذي يُذهِب الحزن ويكشف الكُرَب.[60] وتبيّن السينية انتشار هذا الضرب من الشعر في الجزائر الحفصية وارتباط العامة به، وذلك في قوله:

فكم كربة أجلى الإله بجاههم وكم رقبة أعلى وأولى من الأوس[61]

ثم يحذّر الخائضين فيهم وفي كراماتهم ويتوعّدهم إن هم لم يقْلعوا عن ذلك في قوله:

فكن صادقا في حبّهم ومصدِّقا بأحْوالهم واحذر مخالجة الشَّمس[62]

ومنهم أيضا القسنطيني المذكور آنفا، أحمد الخلوف، الذي برع في قصيد المدائح الدينية وله قصائد تحمل عناوين مسجّعة، وهي قرابة أربعة وعشرين عنوانا منها:

- قطر الغمام في مدح خير الأنام، وعدد أبياتها423بيتا.
- استرواح القبول بمدح طه الرسول، وعدد أبياتها 337 بيتا[63].

كما أظهر الشيخ أبو العباس أحمد الغربي بركات القسنطيني (عاش في القرن9هـ/15م) رقّة شعرية فائقة، وكان مخالفا لأحمد الخلّوف -المعاصر - في نوع كتاباته الشعرية، فإذا كان شعر الخلّوف لصيقا بمدح الملوك والأمراء، فإن بركات كرّس شعره في المديح النبوي، فكان في مؤلّفاته - خاصة مؤلّفَيْه في المواعظ والإرشاد اللذين ذكرناهما- يفتتح مجالسهما-أي فصولهما- بأبيات من الشعر في مدح الرسول-صلى الله عليه وسلم- ، ومثال ذلك قوله في بداية مجلسه الأول مخاطبا الرسول الكريم -من البحر الطويل- :

دعوتك مضطرّا وأنت سميع وجئتك محتاجا فكيف أضيع

وبدأ المجلس الثاني بقوله- من البحر الخفيف-:

طال والله بالذنوب اشتغالي وتماديت في قبيح فعالي[64]

وبدأ مجلسه الثالث بأبيات منها-من البحر الطويل- :

أسير الخطايا عند بابك واقف له عن طريق الحق قلب مخالف[65]

وتشير كل تلك الأبيات إلى اعتراف الشاعر بذنوبه الكثيرة، ومناجاته الله تعالى في أن يغفرها له، مستشفعا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- طالبا الرحمة والغفران.

كما اشتهر الشاعر أحمد بن يونس القسنطيني(ت.878هـ/1474م) أيضا بالشعر الصوفي والمولديات، وأثّرت فيه رحلته إلى بلاد المشرق، حيث درس بمكة فنون الكتابة

والقراءة وعلوم الحساب والمنطق حتى اشتُهر به، تتلمذ عليه كثير من طُلاّبها، لينتقل بعدها إلى المدينة المنورة وجاور قبْر الرسول –صلى الله عليه وسلم– وله شعر عظيم في مدحه (صلى الله عليه وسلم) منه من البحر البسيط قصيدة مطلعها:

يا أعظم الخلق عند الله منزلة ومن عليه الثنا في سائر الكتب[66]

أما عن الإنتاج الأدبي خلال العهد الحفصي في مجال اللغة والأدب،[67] فكان غزيرا، ومن أهم المؤلفات ما أسهم به ابن قنفذ القسنطيني(ت.810هـ/1407م) حين ألّف الكتب التالية :

– الإبراهيمية في مبادئ اللغة العربية

– هداية السالك في بيان ألفية بن مالك[68].

– بسط الرّموز الخفية في شرح عروض الخزرجية[69].

– التخليص في شرح التلخيص[70].

كما ألف أبو عبد الله محمد القلعي(ت. 683هـ/1284م)عدة كتب في النحو منها:

– الموضح في علم النحو.

– حدق العيون في تنقيح القانون.

– نشر الخفي في مشكلات أبي علي، وهو شرح لكتاب الإيضاح في النحو[71].

وما هذا إلا غيض من فيض، فمعظم من ترجمنا لهم، ومن وُجدوا في كتب التراجم إلا ولهم باع في التأليف في مجال الأدب والشعر وغيرها من المجالات الأخرى.

وفي ختام هذا العرض، يتبيّن لنا أنّ الجزائر الحفصية عاشت بحق عهدا ذهبيا، تميّز بحركية النشاط العلمي والثقافي والفكري، وأنتج أدبا ناضجا كان من أعمدته العديد من الأدباء والشعراء، والذين تجاوزت شهرتهم حدود بلاد المغرب الأوسط إلى المغرب والأندلس والمشرق، وقد أنتجوا لنا تراثا أدبيا وإنتاجا غزيرا دلّت عليه مؤلفاتهم وكتاباتهم التي –وللأسف– ما زالت متناثرة بين ثنايا كتب التاريخ والتراجم والرحلات، وتنتظر من ينتشلها من ركام تلك المصادر، ويجمعها في كتابات أدبية منفردة، حتى نستطيع من خلالها الرقي بأدبنا وإحياء معالم الحياة الأدبية في تاريخنا المضيء والحافل بالتراث الثقافي والعلمي على مرّ العهود والأزمان.

هوامش الموضوع

(1)- ابن خلدون: المقدمة ،طبعة دار الفكر ، بيروت،ط1، 2004، ص452-453-457.

(2)- ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس،1968، ص23-24.

(3)- بحاز إبراهيم: الدولة الرستمية، ، جمعية التراث ، القرارة الجزائر 1993 ص: 308- 363.

(4)- المرجع نفسه، 364.

(5)- رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى ، الجزائر، ط3، 2000، ص104-106.

(6)- سليمان داود بن يوسف: حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر، 1993، ص87.

(7)- البلج بفتح الباء واللام : وضوح الصبح، والأبلج الذي قد وضح ما بين حاجبيه فلم يقترنا. ينظر ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري ت.711هـ/1311م): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1997،1، ج1/ ص339.

(8)- أبو السرج: كناية عن الشمس.

(9)- الغبريني(أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله ت.714هـ): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط2، 1979، ص 272.

(10)- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحالي،مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت،1983، ص253.

(11)- العبدري(محمد البلنسي حيا سنة688هـ/1289م): الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب، الجزائر، ص 30.

(12)- المصدر نفسه، ص280-281.

(13)- ابن قنفذ: الفارسية، ص104 .

(14)- الغبريني: المصدر السابق، ص280-281..

(15)- الأرْيحي : الذي يعطي راحة عند ركوبه.

(16)- النّدى : ويقصد بذلك الكرم.النَّديّ: ويقصد به النادي أو المجلس.

(17)- ابن خلدون: المقدمة، ص420

(18)- المصدر نفسه، ص455.

(19)- القلقشندي: كتاب صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، مصر،1962،ج5/ص115.

(20)- الرصاع(أبو عبد الله محمد الأنصاري)، فهرست الرصاع، المكتبة العتيقة، تونس، ص53-54.

(21)- المصدر نفسه، ص: ز.

(22)- ابن قنفذ: الفارسية، ص112-114.

(23)- هو الشيخ الخطيب الحافظ اللغوي أبو بكر، لقي مشايخ عدة منهم: والده الفقيه أبو العباس والشيخ أبو العباس أحمد بن عيسى وغيرهما، أقرأ بإشبيلية، وكان راوية حافظا للحديث، يقوم قياما حسنا على البخاري، وكان يكتب جيدا وينظم حسنا، توفي في ثالث عشر جمادى الأخير من سنة 657هـ/1258م. ينظر أحمد بابا التمبكتي(ت963هـ/1036م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،ط1، 1989،ص381. كما ينظر ابن قنفذ: الوفيات، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ،ط1973،4،ص326.

(24)- هو أبو الحسن علي بن مومن بن محمد بن علي الحضرمي الأشبيلي، المعروف بابن عصفور، حامل لواء العربية بالأندلس. ختم على الشيخ أبي علي الشلوبين كتاب سيبويه، وأقرأ بإشبيلية ومالقة ومرسية. ولد سنة597هـ/1200م، وتوفي سنة669هـ/1270م. من كتبه: "الممتع" و"المفتاح" وغيرها. ينظر ابن قنفذ: الوفيات، ص331.

(25)- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، المعروف بابن الأبّار، مؤرخ كبير، وأديب، وناقد، كان أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والأدبي، من أهل بلنسية، وأصله من أندة، وُلد سنة595هـ/1198م، ونشأ في بيت علم ودين وعفاف، وُلّي قضاء دانية سنة 633هـ/1235م، وبعد استيلاء الروم على بلنسية عام 636هـ/1238م، سافر إلى بجاية ثم إلى تونس، فكان مقرّبا من سلاطين الدولة الحفصية على عهد أبي زكريا ثم ابنه المستنصر المذكور، وقد عمل في بلاط هذا الأخير إلى أن ساءت العلاقة بينهما بعمل الوشاة، فأمر المستنصر باعتقاله وسجنه، ثم ضربه بالسياط حتى قتله سنة 658هـ/1259م، و أُحْرقت جميع مؤلفاته، وكانت نحو خمسة وأربعين كتابا منها: "التكملة لكتاب الصلة" و"تراجم علماء الأندلس" و"الحلّة السيّراء"و"تحفة القادم" وغيرها. ينظر ابن قنفذ: الوفيات، ص324-325.

(26)- ابن قنفذ: الفارسية، ص123.

(27)- المصدر نفسه، ص148.

(28)- ابن قنفذ: الفارسية ، ص178. كما ينظر الزركشي(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم حيا سنة 894هـ/1488م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضود ، المكتبة العتيقة تونس، 1966، ص107.

(29)- ابن قنفذ: الفارسية، ص179.

(30) ابن خلدون: المقدمة، ص 614.

(31)- عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة في العصر الوسيط،طبعة دار البعث، قسنطينة، 2007 ، ص 99.

(32)- الغبريني: المصدر السابق، ص180 وما بعدها.

(33)- ابن الذيب عيسى وآخرون: الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر ، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث،2007، ص132-133.

(34)- الغبريني : المصدر السابق ، ص41.

(35)- المصدر نفسه، ص292-294.

(36)- المصدر نفسه، ص295.

(37)- نفسه،ص119-121.

(38)- ابن قنفذ: الفارسية، ص122.

(39)- الغبريني :المصدر السابق،ص310-311.

(40)- المصدر نفسه، ص310-312.

(41)- ابن قنفذ: الفارسية ، ص166.

(42)-روبار برونشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،1988، ج2 /ص 420.

(43)-عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، طبعة بيروت،1966،، م6/ ص751 . وينظر سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 292.

(44)- علاوة اعمارة: " الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الوسيط ". مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الرابع، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2004، ص46.

(45)- رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته. دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ط3، 2000، ص319-320.

(46)- الغبريني: المصدر السابق، ص282

(47)- الأبيات من البحر الكامل.

(48)- ابن قنفذ:أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص54.

(49)- هو الأستاذ الأول للكتابة الفنية عند العرب، عبد الحميد بن يحي بن سعد العامري. نشأ في الأنبار، واحترف التعليم في الكوفة، واتصل بخلفاء بني أمية، وعظمت منزلته عند الخليفة مروان بن محمد، قُتل أثناء الصراع العباسي الأموي عام سقوط دولة الأمويين عام 132هـ/749م، وهو أستاذ البلاغة العربية ورائد كتَّاب الرسائل عامة. طوّر الرسائل بكثرة التحميدات في صدر الرسالة، وبالتوسع في المعاني والعناية بترتيبها ووضوحها. ينظر حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، دار الجيل ، بيروت ، ط15، 2001، ج2/ص281.

(50)- الغبريني: المصدر السابق، ص223-225 ؛ ينظر رابح بونار: المرجع السابق، ص325.

(51)- نسبة أحمد الخلوف إلى قسنطينة عن طريق المولد، حيث ولِد بها سنة 829هـ/1425م، ولكنه رحل منذ صغره مع أبيه إلى مكة، ثم إلى بيت المقدس. وبعد وفاة والده، رحل الخلوف إلى تونس سنة 859هـ/1454م واستقرها. ينظر أحمد الطويلي: الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي. المجلد الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القيروان تونس، 1996، ص280.

(52)- سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 ص79.

(53)- أحمد الطويلي: المرجع السابق، المجلد الثالث، ص369.

(54)- المرجع نفسه ،ج3/ ص371.

(55)- الغبريني: المصدر السابق، ص151-155 ؛ رابح بونار: المرجع السابق، ص325.

(56)- الغبريني: المصدر السابق، ص616-617.

(57)- المصدر نفسه، ص69-71.

(58)- يقصد بالجيلي: الشيخ عبد القادر الجيلاني(ت.561هـ/1166م).

(59)- الأبيات مضطربة الوزن وهكذا وُجدت في المخطوط.

(60)- رابح بونار: المرجع السابق، ص 271.

(61)- ابن باديس: مخطوط اللمحات الأنسية في شرح النفحات القدسية، مخطوط ضمن مجموعة الخزانة العامة، الرباط، تحت رقمD2189.، ورقة 279.

(62)- ابن الحاج التلمساني:(أبو العباس أحمد بن الحاج اللبيدي، ت. 930هـ/1523م): أنيس الجليس في جلو الحناديس عن سينية ابن باديس، تحقيق الميسوم فضة ، دار الخليل القاسمي، الجزائر، 2006، ص14.

(63)- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت ،(د ت)، ص273 ؛ سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1ص82-83.

(64)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ص109.

(65)- المرجع نفسه، ص110.

(66)- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ج2. مؤسسة الرحالة ، المكتبة العتيقة، تونس، 1985، ص 106-107 ؛ عبد العزيز فيلالي: قسنطينة، ص 136-137.

(67)- اللغة: تعني اللسان، وهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، ولغوت أي تكلمت، واللغو: النطق، واللغة هي الألفاظ الموضوعة للمعاني، أما الأدب فهو الإجادة في فني النظم والنثر، أو ما يعبر عن معنى الحياة، بأسلوب لطيف جميل سواء كان ذلك شعرا أم نثرا. ينظر محمد حسين محاسنة: أضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الكتاب الجامعي، العين الإمارات، ط.2000،1/2001،، ص175.وعند ابن خلدون باختصار دقيق: اللغة هي عبارة المتكلِّم عن مقصوده. ينظر المقدمة، ص624.

(68)- وابن مالك هو أبو عبد الله محمد بن مالك الطائي الأندلسي النحوي عاش بين(600 - 672هـ/1203-1273م). ولد بجيَّان وتوفي بدمشق، وألفيته مشهورة ولها العديد من الشروح وهي مطبوعة. والكتاب في حكم المعدوم ينظر ابن قنفذ : الفارسية، ص 80-83.

(69)- وهو أيضا مفقود.ابن قنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق عبد العزيز صغير دخان، مكتبة الرشد، السعدية، ط1، 2003، ص 54. أما الخزرجية في العروض، فهي لضياء الدين أبي محمد عبد الله بن محمد الخزرجي المالكي الأندلسي، وهي من البحر الطويل مطلعها:

وللشعر ميزان تسمّى عروضه بها النقص والرجحان يدريهما الفتى

وشروح هذه القصيدة عديدة منها المطبوع والمخطوط . ينظر ابن قنفذ: الفارسية، ص79-80.

(70)- للكتاب ذكر في مخطوطات الرباط والمكتبة الوطنية بتونس. ينظر ابن قنفذ: شرف الطالب، ص45. وقد ذكر الأستاذ سعد الله أن الكتاب مختصر لكتابه"خط النقاب" في الحساب، أي تلخيص أعمال الحساب لابن البنا. سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج1/ص114.

(71)- الغبريني: المصدر السابق،ص70.